فصول من كتاب

« المسائل والجوابات فى المعرفة بالله »

للجاحظ .

تحقيق ودراسة الدكتور : محمد عويس محمد

أولا : الدراسة

القــول بأن مقصد الجاحظ من مزاولة الكتابة والتصنيف كان هو التسلية والمسامرة أكثر من الإفادة والتعليم (١) ، قول ظالم لعلم شامخ من أعلام أدبنا العربى ظل مسيطرا على حياتنا الأدبية قرونا طويلة . وقد يظن أن التسلية والمسامرة من مقاصد الجاحظ من التأليف استناداً إلى إرشادات بهذا المعنى جاءت فى كتاب الحيوان(٢) . لكن هذا الظن مجحف لحق هذا الكاتب وما كان يعانيه فى كتاباته من إعمال فكر وتدقيق فى النظر لتخرج منوعة المعارف والموضوعات، ولتتحول — على مايقول الدكتور شوقى ضيف — إلى دوائر للمعارف وانها لتشبه تمام الشبه معارضنا الحديثة انها تعرض تحت بصرك جميع ألوان الثقافة التى عاصرته(٣) » .

والذى لاشك فيه أن قصد الجاحظ إلى التسلية فى بعض كتاباته كان بسبب عرضه لموضوعات منوعة فأراد أن يذهب عن القارىء الملل أثناء اطلاعه على كتاباته ، ومن أجل هذا كان يوسع كتاباته بالنوادر حينا وبالأخبار الطريفة حينا آخر ، دفعا للملل والسأم عن نفس القارىء ، وهو يشير إلى مثل هذا فى كتابه الحيوان ، يقول : « وعلى أنى قد عزمت — والله الموفق — أن أوسع هذا الكتاب ، وأفصل أبوابه بنوادر

---

(١) تاريخ الأدب العربى ، كارل بروكلمان ، ترجمة د. عبد الحليم النجار ، ط دار المعارف ١١٢/٣

(٢) الحيوان للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط القاهرة . الحلبى ١٣٦٦هـ ٥١/٥

(٣) الفن ومذاهبه فى النثر العربى . وشوقى ضيف ، ط دار المعارف . ص ٦٧

من ضروب الشعر ، وضروب الأحاديث ليخرج قارىء هذا الكتاب من باب إلى باب ، ومن شكل إلى شكل ، فإنى رأيت الأسماع تصدعن الأصوات المطربة ، والأغانى الحسنة ، والأوتار الفصيحة ، إذا طال ذلك عليها وماذلك إلا فى طريق الراحة ، التى إذا طالت أورثت الغفلة . وإذا كانت الأوائل قد سارت فى صغار الكتب هذه السيرة ، كان هذا التدبير لما طال وكثر أصلح ، وماغايتنا من ذلك كله إلا أن تستفيدوا خيراً(١)

ثم انظر إليه يشرح هذا المنهج النفسى فى حث القارئ على الإفادة من مصنفاته ووضعه فى الموضع المناسب لتحقيق هذه الغاية ، يقول فى نعت كتاب الحيوان : « وإن كان كتابا واحدا فانه كتب كثيرة ، وكل مصحف منها فهو أم على حدة ، فان أراد قراءة الجميع لم يطل عليه الباب الأول حتى يهجم على الثانى ، ولا الثانى حتى يهجم على الثالث ، فهو أبدا مستفيد مستطرف وبعضه يكون جماما لبعض ، ويزال نشاطه زائدا ، وحتى خرج من أثر صار إلى خبر ، ثم يخرج من الخبر الذى شعر ، ومن الشعر إلى نوادر ، ومن النوادر الى حكم عقلية ومقاييس سداد ، ثم لايترك هذا الباب ، ولعله أن يكون أثقل ، والملال اليه أسرع ، حتى يفضى به الى مزح ، وفكاهة ، وإلى سخف وخرافه ، ولست أراه سخفا ، إذا كنت إنما استعملت سيرة الحكماء ، وآداب العلماء(٢) .

فالجاحظ لم يكن همه من كتاباته التسلية والمسامرة أكثر من الإفادة والتعليم إنما كان مقصده من التسلية والمسامرة توفير أنسب الظروف النفسية ليحقق القارئ الإفادة والتعليم من هذه الكتابات وساعده على هذا ماتميز به من «ردع فكهة حية جميلة » (٣) وأنه كان موسوعى الثقافة يحسن مزج الجد بالمزح(٤) مما دفعه إلى كثرة الاستطردات فى كتاباته بحيث إنها تبدو غير مترابطة الموضوع(٥) .

---

(١) الحيوان : ٣-٧ (٢) الحيوان : ١-٩٣-٩٤ (٣) كارادى فو :
Les Penaeurs Delils Lam, V.I, P. 295-296

(٤) Aarbicl Lterateure, H.A.R.Gibb.,2nd Mdtion, Oxford, 1963, P. M5.

(٥) أنظر « المجتمع العباسى من خلال كتابات الجاحظ « د . محمد عويس ، ط : دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة ١٩٧٧ ، ص ٥٠ وما بعدها .

والصفحات التى ننشرها هنا تعطى جانبا آخر يميز كتابات الجاحظ ويدفع عنها تهمة قصده بها التسلية والمسامرة دون الإفادة والتعليم ، فهى صفحات تصور إيمان هذاالكاتب بالعقل وتحكيمه فى الفصل بين الأمور المختلفة حولها الآراء وحقا مايقوله ابن العميد فى كتابات الجاحظ : —

إنها تعلم العقل أولا والأدب ثانيا (١)وهى صفحات تتناول موضوعا دينيا من خلال منهج عقلى تأسس لهذا الكاتب من خلال ثقافته المنوعة ومذهبه الاعتزالى (٢) فموضوعها هو المعرفة بالله ، وبيان مختلف الآراء التى تناولت المسأله ولاتظن أن مثل هذا الموضوعات التى توصف بأنها من موضوعات التسليه أو المسامرة .

فالجاحظ يعرض لنا فى هذه الصفحات رءوسا للمسائل التى أثيرت حول موضوع المعرفة بالله من مثل تقسيم المعارف والأفعال وبيان رأى المعتزله فى هذا التقسيم ثم ماتدركه الحواس الخمس من المعارف ، ورأى بشر بن المعتمر فى المعارف وإثبات وجود الله جل وعز والرد على هذا الرأى وبيان رأى أبى اسحـــاق النظام فى هذه المسألة والرد على هـــذا الرأى ، ومناقشة المعرفة والاستطاعة ، وهل المعرفة باضطرار أم باكتساب والعلاقة بين المعرفة والخبرة ونقول رؤوس مسائل لأن هذه الصفحات لاتعرض عرضا لكل مسألة بشكل يجعلنا نلم بكل الآراء التى تتناولها بالبحث والنظر .

فهو يفرق بين المعارف الإنسانية المدركة بالحواس الخمس وبين معرفة الله جل وعز ورسوله والعلم بشرائعه ، يحاول يفرق بين نوعين من المعارف ، الأول : مالايعرف إلابالتفكير والمناظرة والثانى : مايدرك بالحواس الخمس ويعرض لزعم الزاعمين بعدم التفرقة بين المعارف من هذا الباب وكيف أنهم يجعلون المعرفة بصدق الأخبار ، وهى معارف تدرك بالتفكير والمناظرة على مشاكلة المعرفة بالامصار القائمة والأيام الماضية

---

(١) أنظر وفيات الاعيان لابن خلكان ٣٨٩٨ ومعجم الاباء لياقوت ط . دار المأمون ١٦—١٠٣

(٢) أنظر المجتمع العباسى من خلال كتابات الجاحظ « د . محمد عويس فى منهج الجاحظ فى البحث ص ٣٠ وما بعد ها .

وهى معارف من الممكن إدراكها بالحس وليس بإعمال الفكر لكن هذه الصفحات لاتمكن الدارس من متابعة أوجه الخلاف بين المتنازعين إذ تأتى مبتورة غير كاملة ، مما يضطره إلى متابعتها عند الكاتب فى باقى مصنفاته ومصنفات من تناولوا هذه المسائل بالبحث من معارفهم .

فدرك الحواس الخمس للمعارف من المسائل الكلامية التى نجد أصداءها فى كتابات الجاحظ ، من ذلك مايعرضه فى الحيوان من حديث عن الاستطاعة لها(١) وتحققها قبل الفعل(٢)،واستحالة الجمع بين وجوب الاستطاعةوعدم الدواعى وجواز الفعل(٣)،ووجود العقل والمعرفة مع الاستطاعة(٤) ومن مثل الحديث عن استغلال الحواس أو تعاونها فى تحقيق المعرفة(٥)،ورد النظام على المانية فى زعمهم استقلال الحواس (٦)،ورده على أصحاب الأعراض(٧)،وقوله فى المعرفة بالروح(٨)وحديث الجاحظ من الاعتماد على العقل دون الحواس فى المعرفة(٩)،فهذه الأمور تكمل بعض الحديث عن المعارف ومايدرك بالعقل والتفكير ومايدرك منها بالحواس :

فالذى لاشك فيه أن هذه الصفحات فصول وأجزاء من فصول اختيرت فى وقت ما من بين جملة الرسائل كتبها الجاحظ فى موضوع المعرفة بالله جل وعز جاءت هذه الصفحات بين مختارات من ٢٧ رسالة للجاحظ يضمها مخطوط بالمتحف البريطانى برقم ثانى ١١٢٩ ، تحتفظ مكتبة جامعة القاهرة بمصورة له فى مجلدين برقم ٢٤٠٦٩ والمخطوط يحمل فى عنوانه الإشارة إلى طابع الاختيار أى أنه ينص صراحة على أن مابه من كتابات الجاحظ ماهو الا مختارات منها ، فالعنوان هو : كتاب مختارات فصول الجاحظ والنصوص التى تضمنها المخطوط روعى فيها هذا الطابع ، فأى نص منها يدور فى موضوع بعينه ويفصل فى هذا النص بين كل جملة من الفقرات بعبارة « فصل عن »

---

(١) الحيوان ٢–١٤٥
(٢) الحيوان ٢–١٩٠
(٣) الحيوان ٤–٨٨
(٤) الحيوان ٥–٥٤٣
(٥) الحيوان ٤–٤٤١
(٦) الحيوان ٤–٤٤١
(٧) الحيوان ٥–١٥
(٨) الحيوان ٥–٤٧
(٩) الحيوان ١–٢٠٧

والمخطوط عليه رسم خزانة الأمير الفاضل مسيوكرم النمساوى بمحروسة مصر سنه ١٨٧٧ ميلادية ويضم جملة من الفصول المختارة من رسائل الجاحظ من بينها هذه المختارات من كتاب المسائل والجوابات فى المعرفة بالله(١) وبعدها الفصول المختارة من كتابه « فى المعاد والمعاش » .

وكتاب المسائل والجوابات فى المعرفة بالله والذى يتضمنه هذا المخطوط لم ينشر بعد ، ولا توجد نسخ منه — فيما نحس — فى أى موقع بحيث يمكن المقابلة بينها . فهو نسخة وحيدة لا نعلم مصدرها ، ذلك أن المخطوط يحدثنا عن مصادر نقولاته ، أو عن ذلك الذى قام باختيار هذه الفصول من كتابات الجاحظ .

والذى يدفعنا إلى القول بأن هذه الصفحات مختارات من فصول من جملة من الرسائل صنفها الجاحظ فى هذا الموضوع ، أن مراجعة ثبت كتبه فى كتابه الحيوان تدلنا على أنه صنف كتابين الأول : كتاب الجوابات والثانى كتاب المسائل يقول :— فعبت كتاب الجوابات ، وكتاب المسائل(٢)

وعلى هذا يكون للجاحظ كتابان الأول يتمم الثانى ، سيرا على منهجه فى الحديث عن الشيء وضده فكأنه عرض فى كتابه المسائل لأمورا ستجر حولها الخلاف ثم جاء فى كتاب الجوابات ببيان هذه الأمور وعلى هذا الظن نحسب أن الجاحظ ألف كتاب المسائل ثم أعقبه بكتاب الجوابات ، ومابين أيدينا يصير اذاً مختارات من الكتابين .

لكن هذا الظن غير مؤكد ، بل هناك ما يزيد المسألة تعقيدا إذ يذكر ياقوت فى فهرست كتب الجاحظ ثلاثة كتب تتناول هذا الموضوع هى : كتاب المعرفه وكتاب جوابات كتاب المعرفة وكتاب مسائل كتاب المعرفة( )فنحن

---

(١) تبدأ من الصفحة ١٧٥ . إلى الصفحة من مصورة جامعة القاهرة .

(٢) الحيوان ١–٩

(٣) معجم الأدباء لياقوت . ط . دار المأمون (١٦ – ١٠٦ – ١٠٧

اذاً أمام كتاب يشرح القول فى المعرفة وكتاب فى مسائل كتاب المعرفة وثالث فى جوابات كتاب المعرفة. ويظهر أن ابن النديم قد ذكر من بين كتب الجاحظ نفس هذه الثلاثة : كتاب المعرفة وكتاب جوابات المعرفة وكتاب مسائل كتاب المعرفة(١) .

وعلى الرغم من ذلك فعناوين كتابات الجاحظ لا تستطيع الاطمئنان إلى أنها توحى بحقيقة موضوعاتها(٢) ، ومن ثم يصح أن نفهم إشارته فى الحيوان إلى كتابى الجوابات والمسائل ، على أنهما كتابان فى موضوعات متباينة ، لاتوجد صلة موضوعية بينهما لكن هذا الظن نستبعده لأن ماجاء عند ياقوت يشير إلى أنهما وكتابا ثالثا من جنس موضوعى واحد .

وعلى هذا يبقى أمامنا أن نعد مابين أيدينا من فصول فى هذه الصفحات ، مختارات من فصول تناولها الجاحظ فى ثلاثة من كتبه ضاعت من يد الزمن فيما يظن ، هى : كتاب الجوابات وكتاب المسائل ، وقد أشار اليها الجاحظ فى الحيوان وكتاب المعرفة الذى أشار اليه ياقوت .

ونظن أن زمن تأليف هذه الكتب سابق على زمن تأليف كتاب الحيوان وبالمثل قبل زمن تأليف كتاب البخلاء(٣) إذ أحال الجاحظ إلى هذه الكتب وإلى مجموعة أخرى من رسائل فى مواضع متفرقة من هذين الكتابين

---

(١) أنظر أريرى فى

New - Material of the kitab - -Fihirst of Ibn El Nadim A.J. Arberry, Cambridge) England p. 4L.

(٢) أنظر فى توضيح هذه المسألة دراستنا « المجتمع العباسى من خلال كتابات الجاحظ فى صعوبة تصنيف كتاباته ص ٤٨–٥٣ .

(٣) الجاحظ حياته وآثاره للدكتور طه الحاجرى . ط. دار المعارف ص ٣٠٠

ثانيا ـ النص

١٧٥ منِ صدر كتاب المسائل والجوابات فى المعرفة :

بالله نستعين ، وعليه نتوكل ، وما توفيقنا إلا بالله

إختلف الناس فى المعرفة اختلافا شديدا ، وتباينوافيها تباينا مفرطا ، فزعم قوم أن المعارف كلها فعل الفاعلين إلا معرفة يتقدمها سبب منه ، ولم يوجبها عليه من أفعالهم ، ولم يرجعوا إلى معرفه الله ورسوله والعلم بشرائعه ولا إلى كل ما فيه الاختلاف والمنازعة وما لا يعرف حقائقه إلا بالتفكير والمناظرة دون درك الحواس الخمس فزعموا أن ذلك أجمع فعلهم على الأسباب المرجئة(١)،والعلل المتقدمة،وجعلوا مع ذلك سبيل المعرفة بصدق الإخبار كالعلم بالأمصار القائمة والأيام الماضية «كبدر» و «أحد» و «الخندق» وغير ذلك من الوقائع والأيام ، وكالعلم «بفرغانة» و «الأندلس» و «الصين» و «الحبة» وغير ذلك من القرى والأمصار وسبيل الاكتساب والاختيار إذا كانوا هم الذين نظروا حتى عرفوا فضل مابين المرجئ الذى لايكذب مثله والمرجئ الذى يمكن الكذب فى مثله فزعموا أن جميع المعارف سبيلها سبيل واحد ،ووجوه دلائلها وعالمها متساوية ، إلا ما وجد الحواس بغتة وورد على النفوس فى حال عجز أو غفلة وكان هو القاهر للحاسة والمسئول عن القوة من غير أن يكون من البصر فتح ومن السمع صفا ومن الأنف شم ومن الفم ذوق ومن البشر مس(٢)،فان ذلك الوجود فعل الله دون الإنسان على ماطبع عليه البشر وركب عليه الخلق .

قالوا فاذا كان درك الحواس إذا تقدمته الأسباب وأوجبته العلل إفعل المتقدم فيه والموجب له . درك الحواس أصل المعارف وهو المستشهد على

---

(١) فى الأصل المرجية وقد التزم الناسخ تحويل الهمزة ياء فى مثل هذه الحالة .
(٢) فى الأصل حس .

على الغائب والدليل على الخفى ، وبعد صحته تصح المعارف وبعد فساده تفسد ، فالذى تستخرجه الأذهان منه وتستشهده عليه كعلم التوحيد والتعديل والتحرير وغامض التأويل وكل ما أظهرته العقول بالبحث وأدركته النفوس بالفكر من كل علم ، وصناعة الحساب والهندسة والصباغة والفلاحة ، أجدر أن يكون فعله والنسوب إلى كسبه .

قالوا فالدليل على درك الحواس فعل الإنسان على ماوصفنا واشترط من إيجاب الأسباب وتقدم العلل ان الفاتح يصره أو لم يفتح لم يدرك فلما كان البصر قد يوجد مع عدم الإدراك ولابعدم الادراك مع وجود الفتح كان ذلك دليلا على أن الإدراك إنما كان لعله الفتح ولم يكن لعله البصر لأنه لو كان لعله صحة البصر كانت الصحة لا توجد أبدا الا والإدراك موجود فاذا كانت الصحة قد توجد مع عدم الإدراك ولا يعدم الإدراك مع وجود الفتح كان ذلك شاهدا على أنه إنما كان لعله الفتح دون صحة البصر .

وقالوا : لأن طبيعة البصر قد كانت غير كاملة حتى جعلها الفاتح بالفتح عاملة ، ولأن الفتح علة الإدراك ومقدمة بين يديه ، وتوطئة له وليس الإدراك علة للفتح ولامقدمة بين يديه ولاتوطئة له ، فواجب أن يكون فعل الفاتح لأن السبب اذا كان موجبا فالسبب تبع له .

فصل منه :

ثم قالوا بعد الفراغ من درك الحواس فى معرفة الله ورسوله وكل مافيه الاختلاف والتنازع ، أن ذلك أجمع لا يخلو من أحد أمرين : اما أن يكون يحدث من الانسان لعله النظر المتقدم ، أو يكون يحدث على الابتداء لاعن علة موجبة وسبب متقدم فإن كانوا أحدثوه على الابتداء ولافعل أولى بالاختيار ولا أبعد من الاضطرار منه ، وإن قالوا إنما كان لعلة النظر المتقدم كما دللنا فى صدر الكلام على أن درك الحواس فعل الإنسان إذا تقدم فى سببه فالعلم بالله وكتبه ورسله أجدر أن يكون فعله أو كان من أجل نظره علم ومن جهة بحثه ادرك مهله جمل دلائل هؤلاء القوم ورئيسهم بشر بن المعتمر(١) .

---

(١) صاحب البشرية ، انتهت إليه رئاسة المعتزلة ببغداد ، وانفرد عن أصحابه المعتزله =

ثم هم من بعد ذلك مختلفون فى درك الحواس الا ماعتمد إدراكه بعينه وقصد اليه بالفتح والإرادة ، لأن الفتح نفسه لم يكن معه قصد وإرادة ما كان فعل الفاتح فكيف يجوز أن يكون الإدراك فعله من غير قصدولو جازأن يكون الفتح فعل الإنسان من غير أن يكون اراده وقصد إليه ما كان بين فعل الإنسان وبين فعل غيره فرق لأنه كان لايجوز أن يكون ذهاب الحجر إذا لم يدفعه ولم يقصد إليه ولم يخطر له على بال فعله ، فكذلك الإدراك إذا لم يخطر على باله ولم يقصد إليه ولم يتعمده لايكون فعله .

فصل منه :

وليس على المخبر نفسه خصمه ، والواصف مذهب غيره ، أن يجعل بأطلهم حقا ، وفاسدهم صحيحا ، ولكن عليه أن يقول بقدر ما تحتمله النحلة ، وتتسع له المقالة ، وعليه أن لايحكى عن خصمه وعليه أن لا يحكى عن خصمه ويخبر عن مخالفة إلا وأدنى منازله أن لايعجز عما بلغوه ولا يعيأ عما أدركوه .

فصل منه :

وقد زعم آخرون أن المعارف ثمانية أجناس واحد منها اختيار وسبعة منها اضطرار فخمسة منها درك الحواس الخمس ثم المعرفة بصدق الأخبار كالعلم بالقرى والأمصار والسير والآثار ، ثم معرفة الإنسان إذا خاطب صاحبهأنهموجه(١) بكلامه إليه وقاصد به نحوه واما الاختيار فكالعلم بالله ورسله وتأويل كتابه والمستنبط من علم الفتيا وأحكامه وكل ماكان فيه

= فى بعض المسائل ، أنظر فى ترجمة (آخباره الملل والنحل الأدبية ١٣١٧ هللشهر ستانى ١—٨١ ولسان الميزان لابن حجر ، ط حيدرآباد ١٣٣٠ هـ—٢—٣١٠ والمواقف للعضد ، ١٣٥٧ هـ ص ٦٢٢ ومفاتيح العلوم للخوارزمى محمد منير ١٣٤٢ هـ ، ص ١٩ . والفرق بين الفرق للبغدادى ، المعارف ١٣٢٨ هـ ص ١٤١

(١) فى الأصل موجبه

الاختلاف والمنازعة ، وكان سبيل علمه للنظر والفكرة ، ورئيس هولاء أبو إسحاق(١)

وزعم(٢) معمر وأن العلم عشرة أجناس: خمسة منها درك الحواس ، والعلم السادس كالسير الماضية والبلدان القائمة ، والسابع علمك بقصد المخاطب إليك وإرادته إياك عند المحاورة والمنازعة ، وقبل ذلك وجود الإنسان لنفسه وكان يجعله أول العلوم ويقدمه على درك الحواس وكان يقول : «ينبغى أن يقوم وجود الإنسان لنفسه على وجوده لغيره » وكان يجعله علما خارجا من درك الحواس لأن الإنسان لو كان أعمى لأحس نفسه ولم يحس رائحته وكذلك سبيل المذاقات والملامس ، فلما كان المعنى كذلك وجب أن يفرد من درك الحواس ويجعل علما ثامناً على خياله وقائلا بنفسه ، ثم جعل العلم التاسع علم الإنسان فأنه لايخلو من أن يكون قديما أو حديثا ، وجعل العلم العاشر علمه بأنه محدث وليس بقديم .

فصل منه :

ولست الواجد ذا الكلام والانجاز (٣) فى الإدخال على بشر بن المعتمر فى درك الحواس ، ثم على أبى اسحاق فى ذلك و غيره مما ذكرت من مذاهبه وتركه قياس مابنى عليه إن شاء الله لنصير الى الكلام فى المعرفة ، فانى إليه أجريت وإياه اعتقدت ، ولكنى أحببت أن أبرئ إفساد (٤) أصولهم قبل فروعهم فان ذلك اقيل للداء وأبلغ فى الشفاء واحسم للعرق واقطع للمادة وأخف فى المؤونة على من قرأ الكتاب وتدبر المسألة والجواب وبالله ذى المن والطول فستعين

---

(١) ابواسحاق ، هو إبراهيم بن سيار النظام البصرى ، شيخ الجاحظ وأحد رؤوس المعتزلة ، وإليه تنسب الفرقه النظامية توفى فى خلافه المعتصم سنة بضع وعشرين ومائتين ، أنظر الملل والنحل للشهر ستانى ١–١٧ والمواقف ٦٢١ والفرق بين الفرق ١١٣ .

(٢) فى الأصل معمرو أخطأ ويعنى اسحاق النظام .

(٣) هكذا فى الأصل ولعلها والاخبار .

(٤) زيادة ناقصة من المخطوط .

فصل .

من رده على أبي إسحاق النظام وأصحابه :

ويقال لهم حدثونا عن العلم بالله ورسوله وتأويل كتبه ، وعن علم القدر وعلم المشيئة والأسماء والأحكام ، (ابا كتساب)(١) هو أم باضطرار ؟ ، فان زعموا أنه باكتساب قيل لهم فخبرونا عن علمكم بأن ذلك أجمع اكتساب ، (ابا اكتساب)(٢) هو أم باضطرار؟ ، فان قالوا باكتساب قيل لهم : أوليس اعتقاد خلاف ذلك اجمع باكتساب ، فان قالوا : نعم قيل لهم : فاذا كان اعتقاد الحق واعتقاد الباطل باكتساب ، أفليس كل واحد من المكتسبين عند نفسه على الصواب ، فاذا قالوا : نعم قيل لهم : فما يؤمن المحق من المخطئ ، وليس سكون القلب وثقته علامة للحق لأن ذلك لو كان علامة لكان المبطل محقا ، إذا كان فيه قد يجد من السكون والثقة مالايجد المحق ، قلنا : وما معنى خلافه إلا أن يكون المبطل شاكا أو يكون عارفا بتقصيره ، أو يكون مكترثا لوهن يجده فاذا لم يكن كذلك فلا فرق بين المعقودين فان قالوا : ان فرق ما بينهما ان سكون قلب المحق فى عينه ، وسكون قلب المبطل باطل فى عينه ، قلنا : أوليس ذلك غير محول لسكون المبطل عن الثقة إلى الاضطراب ولامغيره الى الاكتراث ، فاذا قالوا : ذلك ، قيل لهم فما يؤمن المحق أن يكون سكونه أيضا باطلا فى عينه إذا كان سكونه إلا ينفعل من سكون المبطل ولئن كان السكون بينهما ظاهر الاجتهاد والعبارة ، فمن أظهر اجتهادا من الرهبان فى الصوامع ، والخوارج فى بذل النفوس ، فان قالو : الفرق بينهما ان المحق قد استشهد الضرورات ، والمبطل لم يستشهدها قلنا ، فهل يجوز أن يكون عند نفسه قد استشهد الضرورات أو آلم يستشهدها حتى لوسأله سائل فقال : ما يؤمنك من الخطأ لقال استشهادى للضرورت ، فان زعموا أن المبطل لا يجوز أن يكون عند نفسه قد استشهد الضرورات لأن ذلك هو علامة الحق والفصل بينه وبين الباطل ، قلنا وهل رايتم أحدا اكتسب علما قط ، أو نظر فى شى إلا وأول نظره إنما هو أصل الاضطرار لان المفكر لايبلغ من جهله أن يستشهد الخفى بل من شأن الناس أن يستدلوا بالظاهر على الباطن إذا أرادوا النظر والقياس ، ثم هم بعد ذلك مخطئون ، أو يثيبون ، كلنا فينبغى أن يكون كل مبطل فى الأرض قد علم حين

---

(١) ، (٢) (ابا اكتساب) ليس بخطأ

يقال له مايؤمنك أن تكون مبطلا ، وأنه لم يستشهـد الضرورات وأنكر أصله الذى قاس عليه واستنبط منه ضرورة ، وأنه إنما قال بالعسف أو بالتقليد وإذا كانوا كذلك فهل يخلو أمرهم من أن يكونوا قد علموا أنهم على خطأ أو يكونوا شكاكا أو يكونوا عند أنفسهم مستشهدين للضرورات وإن كانوا قد تركوا ذلك عند بعض المقدمات فان كانوا قد علموا أنهم لم يستشهدوا الضرورات وإن كانوا شكاكا فيها فليس على ظهر الأرض مخطئ الا وهو عالم بموضوع خطئه أوشاك فيه أوكانوا عند أنفسهم مستشهدين للضرورات فما يؤمنكم أن تكونوا كذلك ، فان قالوا ليس أحد يعرف أن علامة الحق استشهاد الضرورات غيرنا قلنا ولستم معشر أبى إسحاق النظام تختلفون(١) فى أمور كثيرة وقد كنتم تخالفون صاحبكم خلافا كبيرا وكلكم إذا سأله سائل يؤمنك أن يكون على باطل قال لأنى مستشهد للضرورات ، فهل يخلوا أمركم من أحد وجهين :

أما أن تكونوا صادقين على أنفسكم ، أو كاذبين عليها ، فان كنتم صادقين فقد صار قلب المحق كقلب المبطل ، إذا كان كل واحد عند نفسه مستشهد للضرورات ، وإن كنتم ، كاذبين فهل منكم محق إلا وهو يلقى الخصم بمثل دعواه فى استشهاد الضرورات ،وهل منكم واحد على حياله (٢) محقا أومبطلا الا وجوابه لنا مثل جواب صاحبه ، فاذا كانت القلوب قد تكون عند أنفسها مستشهدة للضرورات ، وهى غير مستشهدة لها وكون القلب كذلك هو علامة الحق فما الفرق بين القلب المحق والمبطل ،ومع ذلك إنا وجدنا صاحبكم قبلكم ووجدناكم بعده قد رجعتم عن أقاويل كثيرة بعد أن كان جوابكم لمن سألكم مايؤمنكم أن يكونوا على باطل أن يقولوا استشهادنا للضرورات ونحن لو سألناكم عما رجعتم عنه فقلنا لكم لعلكم على خطأ ولعلكم من هذه الأقاويل على غرر لم يعد جوابكم استشهاد الضرورات .

فصل من هذا الكتاب فى الجـوابات(٣)

ثم إلى واصف قولى فى المعرفه ومجيب خصمى فى معنى الاستطاعة وفى أى وجهها يحسن التكليف ويثبت الحجة فأول ماأقول فى ذلك أن الله جل ذكره

---

(١) فى الأصل : يختلفون . (٢) لعلها : حياله .

(٣) أنظر الدراسة وراجع ماجاء فى أول المخطوط من أنه «كتاب المسائل والجوابات»

لايكلف أحدا فعل شئ ولا تركه إلا وهو مقطوع العذر زائل الحجة ولن يكون العبد كذلك إلا وهو صحيح البنيه معتدل المزاج وافر الأسباب مخلى السرب ، عالم بكيفية الفعل ، حاضر النوازع ، معدل الخواطر ، عارف بما عليه وله ، ولن يكون العبد مستطيعا فى الحقيقة دون هذه الخصال المعدودة ، والحالات المعروفة التى عليها مجارى الأفعال ، ومن أجلها يكون الاختيار ولها يحسن التكليف ويجب الغرض ويجوز العقاب ويحسن الثواب ، ولو أن الانسان متى كان صحيحا كان مستطيعا لكان من لا سلم له للصعود مستطيعا ، ولن يكون أيضا مع ذلك كله للفعل مختارا وله فى الحقيقة دون المجاز مستطيعا إلا وجميع أوامره فى وزن جميع زواجره حتى إذا قابلت بين مرجوهما ومخوفهما وبين تقديم اللذة وخوف الآخرة ، وبين تعجيل المكروه وتأميل العاقبة وجدتهما فى الحذر والرع وفى القبض والتبسط سواء ، ولا يكون أيضا إلا وبقاؤه فى الحال الثانية معلوم لأن الفعل حارس والطباع محروسة والنفس عليها موقوفه ، فلن كان الحارس أقوى من طباعها كان ميل النفس معه طباعا لأن من شأن النفس الميل إلى أقوى وامتن السببين ومتى كانت القوتان متكافئتين كان الفعل اختياريا ومن حد الغلبة خارجا وإن كانت الغلبة تختلف فى اللين و الشدة وبعضها أخفى (١) وبعضها أظهر كفرا والإنسان من وهج السموم إذا لم يحضره دواعى الصبر وأسباب المكث وهو من لهب الحريق أشد نفرة وأبعد وثية وأسرع حركة ، ومتى قويت الطبيعة على العقل أو هننه وغيرته ، ومتى توهن وتغير ، وتغيرت المعانى فى وهمه ، وتمثلت له على غير حقيقتها ، ومتى كان كذلك كان عن إدراك ما عليه فى العاقبة ، وزينت له الشهوات ركوب ما فى العاجلة ، ومتى أيضا فضلت قوى عقله على قوى طبائعه أو هنت طبائعه ، ومتى كانت كذلك أثر الحزم والآجلة على اللغه العاجلة طبعا لايمتنع منه وواجبا (٢) لايستطيع غيره ، وإنما تكون النفس مختارة فى الحقيقة

---

(١) فى الأصل أخفا خطأ املائى .

(٢) فى الأصل وواجب بالرفع والأولى النصب معطوف على منصوب .

ومجانية لفعل الطبيعة إذا كانت أخلاطها معتدلة ، وأسبابها متساوية ، وعللها متكافئة ، فاذا عدل الله تركيبه وسوى أسبابه وعرفه ما عليه وله كان الإنسان للعقل مستطيعا فى الحقيقة وكان التكليف لازما له بالحجة ، ولولا أنك تحتاج إلى التعريف بأن المأمور المنهى لابد له من التسوية والتعديل لما قال الله تعالى، والأرض وما «طحاها ونفس وماسواها فألهمها فجورها وتقواها» ولوجاز أن يعلم موضوع غيها ورشدها من غير أن يسويها ويهيئها لكان ذكر التسوية فضلا من القول والله تعالى عن هذا وشبهه علوا كبيراً .

فصل فى جواب من يسأل عن المعرفة:

باضطرار هى أم باكتساب ؟

قلنا ان الناس لم يعرفوا الله إلا من قبل الرسل ، ولم يعرفوه من قبل الحركة والسكون والاجتماع والافتراق والزيادة والنقصان على أنا لانشك أن رجالا من الموحدين قد عرفوا وجوها من الدلالة على الله بعد أن عرفوه من قبل الرسل فتكلفوا من ذلك مالا يجب عليهم وأصابوا من غامض العلم مالا يقدر عليه عنامهم من غير أن يكون تكلفوا ذلك لشك وجدوه أو حيرة خافوها لأن أعلام الرسل مقنعة، ودلائلها واضحة وشواهدها متجلية وسلطانها قاهر ، وبرهانها ظاهر ، فان قال (اباكتساب) (١) علموا صدق الرسل أم باضطرار قلنا باضطرر افان قالوا : فخبرونا عن من عاين النبى ، صلى الله عليه وسلم ، وصحبته ، والمتنبى وصحبته كيف تعلم صدق النبى من كذب المتنبى (٢) وهو لم ينظر ولم يفكر ، فان قالم : أنه نظر وفكر ، فقد رجحتم إلى الاكتساب وان قلتم أنه لم ينظر ولم يفكر فلم عرف الفضل بينهما دون أن يجهله ، وكيف علم ذلك وهو لايعرف الحجة من الحيلة ومايؤمنه أن يكون مبطلا إذا كان لم ينظر فى أمور الدنيا ولم يختبر معانيها حتى يعرف الممتنع من الممكن وما لايزال يكون (٣)

---

(١) أنظر الهامش ص ٧٩

(٢) للجاحظ كتاب « الفرق بين النبى والمتنبى » ذكره فى ثبت كتبه فى صدر الحيوان ١٠/١ وأشار إليه فى نفس الكتاب ٣٧٨/٤ ، وذكره ياقوت فى معجم الأدباء بين ماذكر من كتابات الجاحظ ١٠٦/١٦ ، وذكره أوبرى فى اضافته للكتاب الفهرست لابن النديم :

(٣) يكون : مضافة بالهامش بنفس خط الكاتب .

بالاتفاق مما لايمكن ذلك فيه وكيف ولم يعرف العاده ومجرى الطبيعة وإلى أين تبلغ الحيلة وأين تعجز الحيلولة وعند أى ضرب يسقطان وعلى أى ضرب يقومان ، ولم عرف صدق النبى حين عاين شاهده وأبصر أعجابه من غير أى امتحان لها وتعقب لمعاينها دون أن يعقد صدق المتنبى إذا أورد عليه أعاجيبه وخدمه وصلته بل كيف لم يعرف الله حين وقع بصره على الدنيا من غير فكرة فيها وتقلب لأمرها ، والدنيا بأسرها دلالة عما عرف بصدق النبى حين أبصر دلالته من غير تفكير فيها أو تقليب لأمرها وقد علمنا أن الدنيا دالة على أن شواهد النبى دالة ومتى كان ظاهر أحدهما يغنى عن التفكير كان الآخر مثله إذا لم يكن فى القياس بينهما فرق ولافى المعقول فضل ، قلنا ان تجارب البالغ قبل أن يهجم على دلالات الرسل يأتى على جميع ذلك ، ولعمرى أن لو كان هجومه عليها قبل المعرفة بمجارى وتصريف الدهور وعلقات الدنيا والتجربة لتصريف أمورها وصل إلى معرفه صدق النبى إلا بعد مقدمات كثيرة وترتيبات منزله لأن مشاهد الشواهد إنما يضطره المشاهدة لها إذا كان قد جرب الدنيا وعرف تصرفها وعاداتها قبل ذلك ولو لم يكن جربها قبل ذلك حين عرف منتهى قوة بطش الإنسان وصلته وعرف الممكن من الممتنع وما يمكن قوله بالاتفاق مما لايمكن لما عرف ذلك ، وإن قالوا كيف جرب ذلك وعقله وأتقنه وحفظه وهو طفل ضرير وحدث صغير لأن غير البالغ طفل إلى أن يبلغ ، وحين يبلغ فقد هجم على النبى صلى الله عليه وسلم ، وشواهده ، أو هجم عليه النبى بشواهده أما بخبر مقنع أو بعيان شاف ، فنى أية الحالين جرب وعرف وميز وحفظ ، فى حال الطفولة والخراره وهذا غير معروف فى التجربة والعادة ، والذى عليه ركبت الطبيعة ، أم فى حال البلوغ والتمام ، وحال البلوغ هى الحال التى أبلغه الله الرسالة وقاده إلى رؤية الحجة واستماع البرهان ومخرج الرسالة ، فاذا كان الأمر كما تقولون فقد كان ينبغى أن لايصل إلى العلم بصدق النبى وقد أراه برهانه واسمعه حجته حتى تمكث بعد ذلك دهرا يمتحن الدنيا ويتعجب أمورها ، ويعمل التجربة فيها ، فان كان ذلك كذلك فلم سمعتموه بالغاً وليس فى طاقته بعد العلم بفضل

مابين النبي والمتنبي ، قانا ان التجربة على ضربين : أحدهما أن يقصد الرجل إلى امتحان شيء ليعرف مخبره عما عرف منظره ، والآخر أن يهجم على علم ذلك من غير قصد ، وقد يسمى الانسان مجربا قاصدا أو هاجماً فيزعم أن البالغ قد سقط من بطن أمه إلى أن يبلغ مقلباً فى الأمور المختلفة ومصرف فى خلال الحالات المعرفة التى تلفحه الدنيا بما تور دعليه من عجائبها ويزداد فى كل ساعة معرفة وتفيده الأيام فى كل يوم تجربة كما يزداد لسانه قوة ، وعظمة صلابة ، ولحمة شدة من أم تناغيه ، وظئر تلهبه وطفل يلاعبه وطبيب يعالجه ونفس تدعوه ، وطبيعة تعينه وشهوة تبعثه ووجع يقلقه كما يزيده الزمان فى قوته ويشد من عظمه ولحمه ويزيده الغذاء عظما وكثرة الغضب والتقليب جلدا ، فاذا أدرج وحبا وضحك (وبكى) (١) وأمكنه أن يكسر إناء أو يكفيه أو يسود ثوبا أو يضرب دبر الخادم وانتهزه القيم فلا يزال ذلك دأبه ودأبهم حتى يفهم الإعزاء والزجر والتغذية والانتهاد كما يعرف الكلب اسمه اذا ألح عليه الكلاب به وكما يعرف المجنون لقبه ، وكما يحضر الفرس من وقع السوط لكثرة وقعه بعد رفعه عليه .

فصل منه فى هذا المعنى :

فاذا استحكمت هذه الأمور فى قلبه وثبت فى خلده وصحت فى معرفته فهو حينئذ بالغ محتمل (وعند ذلك) يسخر الله سمعه للخبر المثلج أو بصره لمعاينة الشاهد المقنع على يد الرسول الصادق ، ولا يتركه هماراً ولا يدعه مغفلا وقد عدل طبعه وأحكم صنعه ووفر أسبابه فلا يحتاج عند معاينته رسولا يحى الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص ويغلق البحر إلى تعكير ولا تمييل ولا امتحان ولا تجربة لأنه قد فرغ من ذلك اجمع واستحكم عنده العلم الذى أدب به وهى وله وأورد عليه فان كان لم يكن لذلك عاملا ولا إليه قاصدا ولا به مغيبا (٢) وإنما هو عبد عباه سيده ورشحه مولاه وهيأه خالقه لأمر

---

(١) فى الأصل بكا خطأ إملائى .

(٢) هكذا بالأصل .

لايشعر به من مصلحته ولايخطر على بال من الصنع له حين غذاه به وقاده اليه هيأه له فاذا ورد عليه عسوى رسوله وامته تشهد له باحياء الموتى وفلق البحر وبكل شيء قد عرف عجز البشر عن فعله والقوة عليه ، علم وأن الحيل بتجاربه المتقدمة بعادة الدنيا أن ذلك من صنع البشر وأن مثله لا يقع اتفاقا لا تبلغه فلا يمتنع من رؤية البرهان وفهم الدعوى أن يعلم أن الرسول صادق وأن الراد عليه كاذب .

فصل منه :

ولولا أن هذا كلام لم يكن من ذكره بد لأنه (لا) (١)تأسيس لما بعده (ومقدمته) (٢) لما بين يديه وتوطئه له (لا قتضبت) (٣) الكلام فى المعرفة اقتضابا ولكن بمعنى عجز أكثر الناس عن فهم غايتى فيه إلاتنزيله وترتيبه وكل كلام أتيت على فرعه ولم تخبر عن أصله فهو (خداج) لاغنا عنده (٤) وواهش لاثبات له .

---

(١) هكذا بالأصل وحذفها يجعل الكلام مستقيما فى معناه .

(٢) هكذا بالأصل ولعلها (ومقدمه) .

(٣) فى الأصل لا اقتضيت خطأ املائى .

(٤) أما أن تكون غناء أو غنى والأقرب الأولى .

المراجع

١ — تاريخ الأدب العربي ، كارل بروكلمان ، ترجمة د. عبد الحليم النجار ، ط دار المعارف الطبعة الثانية ١٩٧٤ .

٢ — الجاحظ حياته وآثاره ، د طه الحاجرى ط . دار المعارف ١٩٦٩ م ٥ ١٩٦٩ .م

٣ — الحيوان ، للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط . الحلبي ١٣٦٦ هـ .

٤ — الفرق بين الفرق للبغدادى ، ١٣٢٨ هـ .

٥ — الفن ومذاهبه فى النثر العربي د . شوقى ضيف ، ط . دار المعارف .

٦ — لسان الميزان لابن حجر . ط . حيدر أباد ١٣٣٠ هـ .

٧ — المجتمع العباسى من خلال كتابات الجاحظ ، د . محمد عويس دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة ١٩٧٧ م .

٨ — معجم الأدباء ، لياقوت الحموى ط . دار المأمون ١٣٢٣ هـ

٩ — مفاتيح العلوم للخوارزمى ، محمد منير ١٣٤٢ هـ

١٠ — الملل والنحل للشهر ستانى . ط . الأدبية ١٣١٧ هـ

١١ — المواقف ، للعضد ، ١٣٥٧هـ

١٢ — وفيات الأعيان لابن خلكان ، ط . باريس ١٨٣٨ م

١٣ — Arabic Literature Gibb, H.A.R. 2*ed* Oxford 1963.

١٤ — Les Panseurs De L'Islame, De Ueiuye,Gono, Paris, 1900.

١٥ — New Material The ketab Al-Fihrist of IBN Al Nadim A.J.Arberry, Cambridge.